



أثارت زيارة وفد من الكتاب الفلسطينيين إلى دمشق، تعبيراً عن تضامنهم مع رئيس نظامها في حربه ضد الأكرادية السورية، موجة من الغضب لدى الكثير من الكتاب والمثقفين، وبالأخص الفلسطينيين منهم، الذين اعتبروا أن الخطوة تمثل إهانة للثقافة الفلسطينية المقاومة لكل أشكال القهر ومحاولات إلغاء الشعوب، ذلك أنه باستخدام معايير ومؤشرات الفعل الإجرامي ليس ثمة فارقاً لا في الأداء ولا في النتيجة بين سلوك إسرائيل العنصري التطهيري وسلوك نظام الأسد، بما يحتم اتخاذ موقف نضالي وأخلاقي واحد.

لكن رغم ذلك، ورغم وضوح الحق من الباطل إلا أن ثمة تيارات وشرائح وشخصيات على امتداد العالم العربي تقف بقوة إلى جانب نظام الأسد، والأكثر من ذلك أنها تبني روایته للحدث وتعمل على صناعة مظلومية له، فهو في نظرهم الضحية وضحاياهم هم الجناة، وهو في خطابهم صاحب الحق الساطع والطرف الآخر مجرد خائن لا يستحق موته سوى التهليل والفرح.

تستحق هذه الظاهرة إلقاء الضوء عليها لمعرفة الأسباب والدوافع التي تقف خلفها وتحفّز أنصارها على الإعلان عنها دون أدنى إحساس بالخجل أو بالمسؤولية الأخلاقية تجاه ضحايا النظام الذي يؤيدهونه، بل يصل الأمر إلى حد الفخر لدى هؤلاء في تأييدهم للجريمة المنظمة التي يرتكبها نظام الأسد وحلفاؤه بحق السوريين، والواقع، ومن خلال قراءة خطاب هؤلاء يتبيّن أنهم يرتكزون على جملة من الذرائع لإسناد موقفهم وتبريره أمام أنفسهم وللآخرين:

- ذريعة معاداة الأنظمة (الرجعية) العربية، وهو مصطلح قديم ساد في ستينيات القرن الماضي للتفريق بين أنظمة (تقدمية) جمهورية، وأنظمة ملوكية، ومع أن نظام الأسد هو نظام ملكي بحكم توارث السلطة وديمومة سلطة العائلة الحاكمة التي يفوق عمرها في السلطة عمر تأسس بعض الممالك والإمارات في العالم العربي، من جهة أخرى فإن التطبيق الإجرائي لمعايير التقديمية هو الموقف من الديمقراطية والتطور الاجتماعي، ولا يمكن إدراج نظام الأسد ذي الطبيعة المخابراتية والذي كُبِّل تطور المجتمع السوري وجعله في ذيل قائمة الدول المتخلفة ضمن هذه الخانة.

- **ذرية معاادة الغرب وإسرائيل، رغم أن نظام الأسد**، كان، ولفترة مديدة يعمل متعهداً لدى الغرب لكل الأعمال الفدراة التي تألف المخابرات الغربية عن القيام بها في المنطقة، من اجتثاث جذور المقاومة الفلسطينية في لبنان والمشرق عموماً إلى تزويد إيران أثناء حربها مع العراق بالأسلحة، فيما إسرائيل وأمريكا كانتا تخجلان من الكشف عن علاقاتهما بملف تسليح إيران قبل أن يصار إلى فضح هذه العلاقة في ما سمي "إيران غيت"، وانتهى نظام الأسد في السنوات التي تلت الغزو الأمريكي للعراق بالعمل كمخبر على الشباب العربي القايد لنصرة العراق.

- **ذرية الوقوف إلى جانب المقاومة، بحجة أن نظام الأسد مقاوم من أجل فلسطين**، دون الالتفات إلى حقيقة أن نظام الأسد قام، ومنذ انقلاب حافظ الأسد على السلطة، بتفكيك علاقه سوريا بفلسطين عبر ضرب مقاومتها وشرذمتها لمكونات المقاومة وتوظيفه جزءاً منها في خدمة سياساته في المنطقة، حتى انمحى عنها هويتها الفلسطينية.

- **ذرية معاادة الإخوان والسلفية**، حيث يربط الكثير من اليساريين وقوفهم إلى جانب نظام الأسد بمعاداتهم للإخوان المسلمين، مع أن الثورة السورية حين انطلقت لم يكن لجماعة الإخوان في سوريا وجود واضح بسبب اجتثاث وجودها من المجال العام في سوريا قبل ذلك بسنوات طويلة، أما أن يطلق السوريون في استغاثاتهم شعارات "يا الله ما لنا غيرك"، فذلك ليس مؤشراً على ارتباط الثورة السورية بالإخوان بقدر ما يعني حقيقة أن الأكثريّة السورية هي من المسلمين.

وفي الواقع، لا تعدو هذه الذرائع سوى واجهات يخفي من خلالها المؤيدون للأسد دوافعهم الحقيقية والتي ليس لها علاقة من قريب أو من بعيد بقيم التقدمية والمقاومة والتحرر، بقدر ما ينطلق تأييدهم للأسد من اعتبارات وحسابات غريبة وضيقة بالوقت نفسه وناتجة عن خليط من العقد يخجل أصحابها عن البوح بها فيذهبون إلى التعويض عبر رفع الصوت عالياً وفي ظنهم أنهم يخفون نفائصهم ويوارونها في عملية تدليس واضحة، أما أسبابهم الحقيقية فهي:

- **الغيرة من الاعتراف بثورية الشعب السوري وشعوب الربيع العربي عموماً**، ذلك أن القوى اليسارية ودعاة القومية، غالباً ما طرحاً أنفسهم على أنهم القوة الطليعية للتحرر في المنطقة وأنهم العناوين الأساسية للنضال، وإن لا يمكن نكران تضحياتهم وعرضهم للاضطهاد السلطوي عبر عقود مديدة، إلا أن نضالهم ظل نخبويّاً أو على الأقل لم يتمكنوا من استقطاب الشارع العربي خلفهم، لظروف ربما تتعلق بالشارع نفسه، ويظن قطاع واسع من هؤلاء أن ثورات الشعوب سرقت منهم الأضواء وربما همشت تارихهم، لذا فإن غالبية هؤلاء يشعرون بعداء شخصي تجاه هذه الثورات وليس موقفاً أيديولوجياً كما يدعى الكثيرون منهم.

- **رفض الاعتراف بمساواة السوريين، ذلك أن المظلومية** يجب أن تبقى ضمن جهات محددة فلا شيء يشبه كربلاء أو مجرفة دير ياسين أو حلجة ولا حتى ما يحصل في اليمن، ولا تشبه مقاومة الشعب السوري المقاومات الأخرى، وسجون بشار الأسد غير السجون الأخرى، وكأنهم يدفعون ثمن تضحيات الشعب السوري من رصيد مظلومياتهم.

لكن يبقى ثمة سبب أهم من تلك الأسباب يتعلق بطبيعة قراءة هؤلاء للثورات وطبيعة موقفهم من الشعوب، من الطبيعي أن تنتج هذه المواقف عن سطحية مدهشة وعنصرية لم يسبق أن تم اختبارهما سابقاً، فلما المفاجأة؟

المصادر: